النهار
٢٠٠٢/٤/٨

جيلاً بعد جيل

قلما يستشعر المرء في حياته اليومية ما يسميه المؤرخون "الزمن الطويل"، خصوصاً عندما تنوء هذه الحياة تحت ضغط الاحداث المتسارعة دائماً. لكن ثمة احداثاً تفرض، من فرط تكرارها، نظرة تاريخية مديدة، وحزناً يكون بقدر التاريخ الذي مرّ. قبل اربعة اعوام، انقضى نصف قرن على النكبة، فكانت مناسبة لقياس الزمن الضائع من عمر هذا المشرق.

لكن الذكرى غير التكرار. وها هي المأساة تتكرر، بعد عقدين على حصار بيروت، وهو الذي جاء بعد خمسة عشر عاماً على هزيمة حزيران التي كانت قد تلت بتسعة عشر عاماً نكبة ١٩٤٨. ثلاثة اجيال، وربما اربعة... ليس الكلام عن الاجيال مجرد صورة رمزية، ولسنا هنا نراقب ما ابتليت به شعوب بعيدة. نحن من ابتلى. نحن من لم يعرف وتيرة حياة عادية، من دراسة الجد التي قطعتها حرب فلسطين الاولى الى امتحانات الابن وسط انباء الحصار، الى الحفيدة التي تقترب بدورها من موعد البكالوريا على ايقاع حرب فلسطين الجديدة، عين على "الجزيرة" واخرى على الكوفية. ثمة مصائر اسوأ بالتأكيد، لكنها الحكاية نفسها. جيلاً بعد جيل، يجتثّون منا ألق الحياة، يشلّون فينا عصب المستقبل، يسخّروننا لمداواة انفسنا من الداء الذي سكبوه فينا. وتسأل يا توماس فريدمان لماذا كل هذا الكره؟

? ? ?

جيلاً بعد جيل، كان يمكن اليأس ان يغلب، ولعله فعل احياناً. ولكن، جيلاً بعد جيل، يعود الامل ويكبر. وسط كل العاهات التي تعمل في الجسد العربي، تبقى سليقة الامل ظاهرة تحمل على الاعجاب اذا حاولنا النظر اليها بشيء من التجرد. رغم الانهاك، لا كلل. تصوّروا فقط لو نجحنا في وضع حد لتمدّد هذا السرطان، اي طاقة ستتفجر عندئذٍ. كل شيء يقال في العرب، لكنهم على الاقل لم يفقدوا البوصلة.

فلسطين هي القبلة، وشعبها الدليل. الكلام طبعاً ليس عن الحكام وهم الى القصور مهاجرون، بل عن الناس العاديين، وعن الشباب خصوصاً. قبل ايام، عند بداية الاعتصام الدائم في وسط بيروت، اول جادة بشارة الخوري (ويقال خطأ هذه الايام ساحة الشهداء، فيما الساحة تنتهي قبل خمسين متراً شمال المكان)، كانت سيدة مخضرمة راكمت، على ما يبدو، خبرة كبيرة في تظاهرات الايام الخوالي، تطلق هتافات لم نسمعها منذ ربع قرن، فيرددها الشبان والفتيات حولها في ما كان اشبه بدروس استلحاق نظمت على عجل. في بيروت، حمل "الدرس" شيئاً من الحنين الى زمن من البراءة. في المنامة والظهران والدوحة، "المادة" جديدة بالكامل. جيلاً بعد جيل تكبر الحلقة. لو لم يكن السيد اسامة بن لادن متربصاً في لا وعي كل واحد، لقلنا ان الانجاز انجازان: انحياز الى فلسطين وآخر الى الديموقرطية المباشرة. للمناسبة، في اي فسطاط يقيم الآن السيد بن لادن واتباعه؟

? ? ?

جيلاً بعد جيل نلتجئ الى الحنين، يعني الى فيروز، وهذا واحد من الجوانب المضيئة النادرة في هذه المحنة. لكن فيروز لم تعد وحدها، ويا للاسف. لو تجاورت فقط مع مارسيل خليفة واحمد قعبور ورواد الاغنية السياسية السالفة، لما كان من سبب للشكوى. غير ان ما يغطي صوتها في معظم

النهار
٢٠٠٢/٤/٨

الاحيان هو اغانٍ من طارئين على الهم السياسي. انه الحلم العربي، او هكذا يقولون. الوطنية كمادة استهلاكية. على الدوام، كان المستمع يفاجأ بكمية الاغاني التي تختزنها الثقافة العربية لنصرة فلسطين على موجات الاثير، لكن "التنوع" هذه المرة يلفت الانتباه، وان كان لا يطرب الاذن ولا يروي العقل. صحيح انه منذ قرر شعبان عبد الرحيم ان يكره اسرائيل، صار كل شيء مباحاً.

? ? ?

جيلاً بعد جيل، تتكرر المأساة ومعها الاخطاء. بين اغنيتين لفلسطين تعدّر تحديد منشديهما، حديث على "اذاعة الشرق" ل"فنان" بقي ايضاً مجهولاً. لا عجب، "الفنان" مفعم بالكلام الوطني الذي لا طائل تحته، ومنه مثلاً: لو تحرك الشارع العربي منذ ثلاثة وخمسين عاماً، بعدما بيعت فلسطين واشتراها اليهود!... كذا. لم يضف ان الخسن والخسين بنات معاوية، لكن قصده بدا واضحاً: كان الرجل يحاول كسر الرقم القياسي لكثافة الاخطاء في الجملة الواحدة. تذكير برسم الوافدين الى شارع النضال: لو لم تتحرك شعوب المشرق العربي منذ ثلاثة وخمسين عاماً، لما كان تم تكسير عظامها في اسر الديكتاتوريات العربية، ولكانت اليوم في حالة من الجهوزية تسمح لها باطاحة كل من يُحلّ الكلام مكان العمل، والجمود مكان المبادرة.

تذكير ثان وأهمّ: لم نخسر فلسطين عام ١٩٤٨ بسبب البيع والشراء، ولم نعجز عن استعادتها فقط بسبب الخيانات والتواطؤ، بل لان اسرائيل كانت في كل هذه الحالات ولا تزال الاقوى عسكرياً واعلامياً، سواء بقواها الذاتية او بفضل ميزان القوى العالمي الذي ارتكزت عليه. والخلاصة انه لا سبيل لتجنيب الجيل المقبل التعلّم السريع في دروس شبه خصوصية الا اذا ادرك الجيل الجديد، جيل اليوم، ما افتقر اليه من سبقه، اي حسن قراءة الواقع بدلاً من تخيّله. والواقع الراهن يقول لنا ان اسرائيل ترد على استراتيجيا فلسطينية اكثر تعقيداً بكثير من بضع عمليات انتحارية. ولكن ما السبيل الى فهم هذا التعقيد ما دام بعض منظمي التظاهرات في "بيروت الصمود"، يمضون ثلاثة ارباع وقتهم في مطاردة صور ياسر عرفات؟ في دمشق، على الاقل، عندهم عذر: لم يخبرهم التلفزيون الرسمي ان الرئيس الفلسطيني محاصر.

? ? ?

جيلاً بعد جيل، نرتقي رغم كل شيء. بين احمد سعيد وجيفارا البديري، لا يمكن القول اننا بقينا على حالنا. وجيفارا هي بنفسها الدليل الحي على تداول الاجيال وسط المحن. فليس صعباً ان ندرك لماذا سماها والداها باسم الثائر الارجنتيني. ربما كانا يلوذان ب"الجبهة الشعبية" والاكيد انهما ارادا التعبير عن رغبتهما في تثوير فلسطين. ليطمئنّا اينما كانا: بعد "جيفارا غزة"، احد ابطال المقاومة في السبعينات والذي غنته "فرقة الارض"، ها هي "جيفارا بيت لحم" تثوّر العالم العربي برمته.

لكنها تفعل ذلك بدرجة عالية من المهنية تبعدنا الى اقصى الحدود عن البروباغندا البائسة التي كانت خبزنا الاسود لعقود خلت. فإلى جيفارا، ومعها شيرين ابو عاقلة، ووليد العمري، وطواقم المصورين ومهندسي الصوت، ومن دون ان ننسى الشاب المنهمك على الهاتف في خلفية المشهد وراء شيرين، وسائر الصحافيين الفلسطينيين العاملين في احلك الظروف، تحية. انهم، مع من يحوطهم ومن يحاورون، الوعد بان السرطان لن يضرب الدماغ.

سمير قصير

النهار
٢٠٠٢/٤/٨

Id-Reference	**02-Pr-000748**	
Media	**(Support)**	HC
Title		جيلاً بعد جيل
Subtitle		
Section		مرور الكلام
Language		عربي
Source		النهار
Page		٢٠٠٢/٤/٨ 8/4/2002
Date		
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	احمد.سعيد – توماس.فريدمان – اسامة.بن.لادن – شيرين.ابو.عاقلة – جيفارا.بديري – فيروز – مرسيل.خليفة – احمد.قعبور – وليد.عمري
	Locations	لبنان – فلسطين – اسرائيل – منامة – طهران – دوحة
	Dates	١٩٤٨
	Themes	فلسطين – لبنان – نكبة.١٩٤٨ – عرب – حصار.بيروت – هزيمة.حزيران – بيع.و.شراء.فلسطين – جبهة.شعبية – محاصرة.ياسر.عرفات – بن.لادن – مقاومة – جيفارا.غزة
Subject		